الظلّ الذي لا يُطفأ

مها البهادل

كلما اقترب الليل من جسد الوطن ظهرت ظلال تُضيء أكثر من المصابيح تلك ليست أوهامًا
إنها ظلال الذين قرروا أن يمشوا إلى الله من طريق النار

في كل حرب، يولد ظلّان ظلُّ الفناء وظلُّ من يتقدّم عليه
وحين تسلّل السواد إلى الموصل وامتد كالأفعى بين نخيل البصرة نهض ظلّان لا يشبهان أحدًا
ظلُّ أبو مهدي المهندس الحالم بالحق كأنه خبز الفقراء وظلُّ قاسم سليماني السائر كأنه دعاء تحت المطر

لم يكونا جنرالين في جيش
كانا نذراً نذرهما هذا الشعب ثم حملهما كالأمانة في القلوب كانا يمشيان حيث يفرّ الجميع ويصغيان إلى الصوت الذي لا يُسمع إلا للذين غسلوا أرواحهم بالصدق وفي كل خطوة كان شيء ما من السماء يُضيء الأرض تحتهما ولم يكن ذلك النور غريبًا بل هو دعاء المرجعية
يوم أعلن السيد علي الحسيني السيستاني فتوى الدفاع كان الوقت قد جفّ في عروق الناس وكان العدوُّ يطرق الباب بقبضات الحقد
لكن حين صدحت كلمات الفتوى لم تكن مجرد دعوة إلى القتال بل كانت صحوة أيقظت كل ما هو نائم في أرواحنا
أبو مهدي سمع الفتوى كما تُسمع الوصايا
وقف وقال:
أنا خادمٌ لهذه الكلمة وسأمضي بها إلى حيث ينكسر الليل
وسمعها قاسم كمن يسمع نداء عاشوراء
قال لأحد مرافقيه:
إذا لم أكن مع الحسين الآن فمتى أكون

تحوّلت الفتوى إلى سيف لكن السيف يحتاج من يحمله وحملها أبو مهدي لا كقائد بل كخادم للناس
كان يشرف على إعداد الطعام في الخطوط الأمامية يربط جراح المجاهدين وينام في خيمة صغيرة تشبه بيت طفولته
وقاسم
كان يمشي على الحافات لا يبيت في مكان واحد كأنه يبحث عن قبره بنفسه لكنه يعود كل مرة ومعه نصرٌ صغير
قال أحدهم:
حين يصافحك قاسم تشعر أن الله راضٍ عنك
لم يكن أبو مهدي يتحدّث كثيرًا لكن إذا تكلم صمتت البنادق
وكان يقول:
العدوُّ لا يخاف من عددنا بل من إيماننا
وكان قاسم يضيف
وكل مؤمن هو جيشٌ وحده

يوم دخلوا تلعفر كانت المدينة تبكي من الوجع
لكنهم دخلوها كما يدخل الأبُ بيتًا فيه أطفاله خائفون مسحوا عن الجدران أسماء القهر وكتبوا بدلاً عنها السلام عليكم بما صبرتم.
لا أحد يعرف كم مرّة نجا أبو مهدي من الموت وكم مرّة طلبه
ولا أحد يستطيع عدّ المرات التي خاض فيها قاسم معارك بدون أن يُعلن اسمه
لم يكن يريدوا مجدًا دنيويًا
قال قاسم مرةً لأحد قادة الحشد
حين يُذكر اسمك في مجلس زينب، فذلك هو النصر
وكان أبو مهدي يجيب
والشهداء لا يموتون بل يصعدون كأنهم صوتُ السيدة الزهراء
وفي الفجر الذي يشبه السطر الأخير في قصيدة طويلة امتدت يد الغدر
ظنّت أنها ستُطفئ النور
لكن الله لا يسمح للعطر أن يُدفن

استشهد الرجلان
لكن الدم حين يسقط من الجبهة لا يموت
بل يتحول إلى أثر
الآن، إذا زرت الجنوب ستجد في كل شارع قصة عن أبو مهدي تحكيها الجدران بلهجة الأمهات
وإذا ذهبت إلى كرمان أو قُم تسمع اسم قاسم يُلفظ كأنه دعاء مبلل بالبكاء
وفي النجف حين يُذكر السيد السيستاني يُذكر من وقفوا معه لا بحروف بل بدمٍ نطق بالشهادة
فالمرجعية لم تكن وحدها كان خلفها جيشٌ من الأرواح والظلّان الكبيرين كاناً في الطليعة
هل ماتا؟
لا
لأن الموت لا يجرؤ على دخول مقام الذين نذروا حياتهم لله ثم أوفوا

كل راية تُرفع الآن باسم الحسين فيها خيطٌ من ثيابهم
كل موكب يُوزّع الطعام فيه نية من نواياهم
وكل طفل يتعلّم اسم الوطن ينطقه من دون أن يعرف أن اثنين قد زرعا ذلك الاسم بين أحرف قلبه
حين نُشيّعهما لم نكن نبكي الموت بل كنا نقول لهما
عودوا متى شئتم فالظلّ لا يغيب عن أهله
وكان السيد السيستاني ذلك الجبل الهادئ يُحدّق في السماء ويُرسل سلامًا لا يُرى
فهو يعلم
أنهما وصلا إلى حيث لا يُحزن عليهما بعد اليوم
تمّت
لكنها تبدأ كلما سقط ظلّ جديد في سبيل الحق.